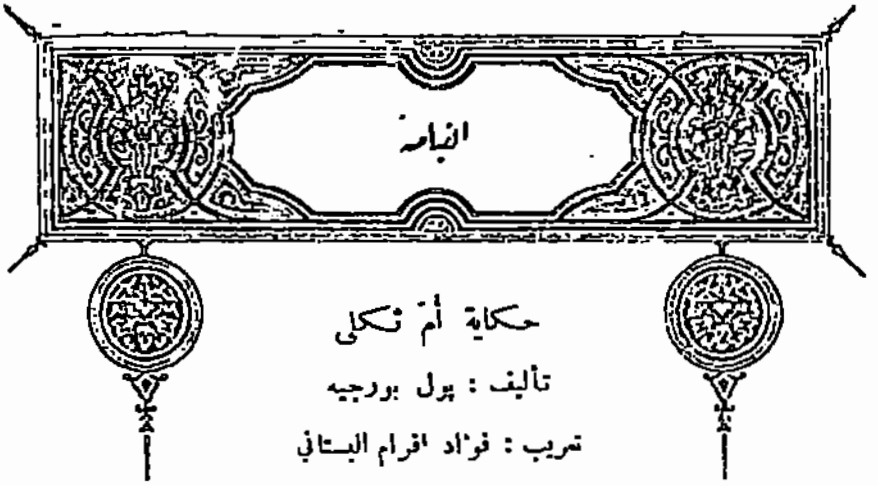

الفبارة

حكاية أمّ ثكلى

تأليف : پول بورجيه

تعريب : فؤاد افرام البستاني

٣ (تابع)

سمعت نفسها تلفظ هذه الكلمات التي تدفقت فيها آلامها الهائجة ، فأخذها نوع من الهلع دفعها الى الوقوف ، فتركت المقعد الحجرى الذي كانت جالسة عليه . وامرّت يديها على عينيها كأنها تريد ان تطرد تجربة تلك الامنية الفظيعة ، واخذت تعاود سيرها في نواحي الحرج مسرعة خطاها ، كما لو ارادت الهرب من ذاك المشهد الساطع ، الهرب من رؤية الطريق التي سيأتي عليها ولدا زوجها ، الهرب من افكارها ، الهرب من ذاتها . كانت تهيم في تلك الحديقة الفسيحة الموحشة ، فتختار الماشي الضيقة التي لا تكاد تُطرق ، فتملق الأغصان اليابسة بفسطانها ، وتفرقع كروز الصنوبر زالقةً تحت قدميها ، وتنحّي بيديها بعض الأنجام الشائكة ، او بعض اغصان الاريقى العالية . وبينما كانت تسير مدفوعةً بنوع من الهذيان الوحشي الى إيلام قدميها على تلك الطريق الكثيرة العقبات ، وايجاع اصابعها بشوك الاغصان والاوراق ، كانت فكرتها تهيم هي ايضاً ، على غير هدى . على ان تلك الثورة القوية التي حملتها مؤخراً على بغض ولدي زوجها كانت قد هدأت . ولكنها تركت في فؤادها سآمةً مؤلمةً ، ونوعاً من الكره لا يقاوم كانت تُقرّ به اذ ذاك ، بل كانت تعتبره من حقوقها ، كما لو كان انتقاماً مشروعاً من مصيبتها . كانت تهيم ، وفي فكرتها يتجلى قصد كثيراً ما اقلق خاطرها ، ولكنه لم يتوصل قبلاً الى هذه الدرجة من الدقة والاستهواء . أيّة فائدة في ان تتابع ، تجاه ذينك الشخصين اللذين

كان وجودهما وحده يعذبها ، القيام بتلك السخرة ، بل بتلك المهزلة ، فتمثل امومةً اصبحت منافية للحقيقة ؟ لماذا لا تتخلص منهما بان تفعل بهما كما يفعل كثير من الاهل باولادهم الحقيقيين ؟ فبدلاً من ان تحتفظ بهما في البيت ، لماذا لا ترسلهما : الصبي الى مدرسة داخلية ، والفتاة الى دير البنات ؟ فتبقى هي وحدها ، مع ولدها الميت ، متخلصة من سماع تلك الاصوات حولها ، وتلك الضحكات ، وتلك الالاعيب ، وسائر تلك الحركات التي كانت تهزأ بألمها ؟ ان غي الوافر الشعور ، واليس اللطيفة الاخلاق ، لا يكونان سعيدَين بين جمهور طلبة المدارس الداخلية . ولكن كم من صغار الصبيان وصغيرات البنات يقاسون ، وهم بعمرهما ، ذاك المنفى بالبعد عن العائلة ، ومع هذا يكبرون كغيرهم ؟ وان لم يكونا سعيدَين ؟ اوليس ذلك من العدل ؟ . . كانت اليصابات تعرف ان انهما كانت ، وهي على فراش الموت ، قد رجت من زوجها ان يترك منصبه ، ليعيش مع الولدين ، فلا يفارقهما بل يحبهما حباً مزدوجاً لانه سوف لا يبقى لهما سواه . وكانت تذكر ايضاً كم كان في قلبها من الشفقة ، لما قبلت وصية المائتة ، فعبّرت عن رجائها الاخير قائلة : «بما ان الاب لا يزال في خدمته العسكرية ، فعليَّ انا ان لا افارقهما ، انا اظلّ دائماً معهما فاكون لهما ما ارادت ان تكون هي ! » فهل يوافق رغبة المائتة ، رغبة تلك التي حلّت اليصابات محلها واخذت على نفسها ان تقوم مقامها في كل شيء ، هل يوافق رغبتها المقدّسة ان تخرج اليصابات ذينك اليتيمين من منزلهما الابوي ؟ من الحق ان ضميرها كان يحببها لا . ولكن « الخالة » اذا انتبهت عواطفها ، اصبح من الصعب ان تهدأ . ومن غريب مظاهر العاطفة البشرية المتألمة حتى المرض ، ان المرأة الحية ، الفاقدة ولدها ، كانت تشعر إزاء المائتة ، التي لا يزال ولداها يتمتعان بالحياة ، بتلك الغيرة الجافية التي تتراجع الى الوراء ، فتفسد بسمتها الحادّ كثيراً من الزيجات الثانية ، وتجعل من افضل المخلوقات احياناً آلات للعذاب لا تشعر ولا ترحم . ولهذا فبما ان وضع الصغيرين في المدارس الداخلية كان احدى مخاوف الام ، وهي على فراش الموت ، كانت « الخالة » ترغب فيه شاعرة بلذّة خفية مبهمة كانها لذة الانتقام . . . وكانت تشعر ، فوق ذلك ، ان هذا العمل ليس الّا

الابتداء ، ليس الّا الخطوة الاولى على طريق من القسوة لا تقف فيه عند حدّ . . . ولكن سوف يرجع الأب ، فما تقول له ؟ وهنا اصبحت التجربة اوفر اثماً من ذي قبل . لم يكن للصغيرين من شاهد لدى ابيهما ، البحري الغائب ، سوى «خالتهما» . فكان من السهل ان تكتب الى زوجها انها لم يعد بامكانها الاحتفاظ بالولدين من اجل هذه النقيصة او تلك العادة . ولم تكن بحاجة الى الكذب في ذلك لان الصغير كان غضوباً من طبيعته ؛ وكانت الفتاة ، من طبيعتها ، تجاوب بشيء من عدم الاعتبار . وكانت اليصابات ، في ما مضى ، تحول دائماً بين نقائص الصغيرين وقسوة ابيها ، كما لو كانت امهما الحقيقية . أما الآن فما عليها الّا تغيير خطتها تلك — أوَ ليس هذا من حقها ؟ — وعليه فان ارسال الصبي الى المدرسة ، والابنة الى الدير ، غدا بسيطاً ، بل نافعاً ، بل ضرورياً ! . . . اما كون عملها هذا يؤثر في حنوّ الاب على اليتيمين ، ويبعد عما كانت رسمته لنفسها من المقاصد السابقة ، فلم تكن لتهتم به ، لان عملها سيخفف من عذابها في المستقبل . . .

٤

لكل نفس جوّ خاص من الافكار ، لا يمكنها التنفسّ طويلاً اذا اخرجت منه . وان الشعور الشريف قد ينحطّ زمناً فينقاد الى قصد المقاصد السافلة ، بل قد يباشر تنفيذها اذا ما انتابته نوبة مضلّة ؛ ولكنه من المحال ان يرضى مغتبطاً بتلك المقاصد . عندما صرّحت السيدة الفتية لنفسها : «لقد قصدت قصدي ، فسابعدهما عن المنزل ، قبل مرور ثمانية ايام» ، عند ذاك جزّبت ان تُقلع عن التفكير بالصغيرين اللذين سوف تعاملها بتلك القساوة ، وعن التفكير بالدور الشائن الذي سوف تمثله امام ابيهما ، وبدافع غريزي اخذت تستغرق بكليتها باستعادة ذكريات اندري ، علّها تخدّر وساوسها الذي بدأت تشعر به في اعماق ضميرها الطاهر . فاستدعت الشبح الصغير بجدّة من الاسف جعلتها تخاله حاضراً لديها ، كما لو لم تكن رأته جامداً على نعشه ، وقد فُتح فوه بعد ان تقطعت انفاسه ، واغمضت عيناه ، وضُمت يداه الشاحبتان كلون الشمع الى الصليب ؛ كما لو لم تكن شاهدت الرجال السود يسترون خشب التابوت فوق

ذاك الشيء الساكن بلا حراك الذي كان ، الى الامس ، ولداً ضاحكاً لا يبالي بشيء . . . كانت تتصوره الى جنبها ، وعلى خصل شعره الذهبيـة ينعكس نور الشمس الزاهي . وقد بلغت دقة تلك الصورة ، وتأثيرها في الام حتى شعرت هذه بميل لا يقاوم يدفعها الى تغذية حنوّها بشيء حقيقي ، شعرت بحاجتها الى القيام بعمل يكون فيه نصيب لهذا الابن المعبود ، شعرت بشهوة تحملها على خدمته بشيء . فجعلت تجمع اجمل ما كانت تراه من اغراس الاريقى البيضاء لتحملها اليه ، وتزيّن بها غرفته . منذ اليوم الذي سارت فيه جثة الصغير الى المقبرة من المنزل — ذاك المنزل الذي دعي «المنزل الوردي» فاصبح الاسم مدعاة للتهكم المؤلم ! — لم تشأ الام ان يغير متاع واحد من اثاث الغرفة . وقد نالت من زوجها الوعد بان يشتري ، بعد رجوعه ، ذاك المنزل الذي كان استأجره لقربه من طولون اذ كان ضابطاً في احد المراكب المرابطة هناك . وكم من النساء ، امهات كنّ او زوجات او فتيات ، جرّبن هكذا ان يُطلن وجود كائن معبود لديهن بحفظ ما كان يعزّ عليه من الاشياء ! ثم يأتي الزمن فيُهلك الكاهنة نفسها التي كانت تقوم بهذه العبادة ، ولا يُبقي من تلك الذخائر التي كانت تكوّن كنزها الثمين ، الّا مخلفات لا قيمة لها من اطمار رثّة ، واثاث قد بلي وانقضى زمنه . ولكن من يجرأ ان يلوم قلباً أميناً على جهاده في ان ينتزع ، ولو مدة قليلة ، من الفناء الآتي على كل شيء ، هذه المجموعة من الامتعة الوضيعة ، الثمينة ، الشخصية حتى تكاد تكون اشخاصاً حية ? منذ اربعة اشهر ، لم تخالف الام يوماً واحداً ، عادتها بأن تذهب ، كل صباح وكل مساء ، الى تلك الغرفة الصغيرة التي فاضت فيها آخر نسمات وحيدها . فكانت تفتح نوافذها بنفسها ، وترفع الغبار عن اثاثها ، وتنشر الثياب الصغيرة التي كانت لا تزال محتفظة بشكل الجسد الصغير . . .

هو مظهر لتقواها الجريحة كان يدفعها الى القيام بهذه العبادة المؤثرة التي لا تجدي نفعاً . وهذا ما شاءت القيام به الآن . كانت باقة ازهار الاريقى قد ضخمت حتى ثقلت على يديها ، فضمتها بساعديها وسارت بهذا الحصاد الباطل ، وهي سعيدة يائسة معاً ، فانحدرت نحو المنزل المتراءي بين الصنوبر الحلبي ،

واشجار النخل واليوكا ، بلون ورديّ ، لون الفرح والرجاء . كان جديراً بمشاهد مأساة مؤلمة ظهورُ تلك السيدة الفتيّة الشقراء غارقةً في حدادها الاسود ، حاملة باقة الاريقى البيضاء العطرة ، مسرعةً نحو ذاك المنزل الزاهي الالوان ، تحت تلك السماء الزرقاء ، في تلك الحديقة المخضرّة ، كما يُسرع الانسان نحو بلاط ضريح ، فيزينه بالازهار ويبكي فوقه !

٥

. . . دخلت الام منزلها من الباب الخلفي ، وهي غارقة في افكارها حتى انها لم تنتبه للحوذي يغسل ، امام الاصطبل ، دواليب المركبة الانكليزية — ممّا يدلّ على ان نزهتها الكئيبة كانت اطول من المعتاد . وكان غي واليس قد رجعا من زمن طويل . فما كادت اليصابات تدخل المشى المؤدّي الى غرفة الميت ، حتى شعرت برجفة شديدة غريبة اذ رأت الباب مفتوحاً قليلاً ، وسمعت صوت الولدين ، صوت ذينك اللذين عذّبتها صورتهما طول صباحها فحصرتها ضمن نطاق من البغض والظلم . . . ماذا يفعلان في هذه الغرفة التي حرّمت دخولها على اي كان ، والتي لو لم يمرّ فيها ، بين خصاص النافذة وفتحة الباب ، شعاع من الشمس فيقطعها بجبل من نور ، لظلّ الظلام مشتملاً عليها . فوقفت الام جامدة تصغي الى ما يقوله الزائران ، دون ان تميّز تماماً حركاتهما ، وقد شدّت باقة الزهور على قلبها المتضاعف النبضات . فهمت ، في تأثرها الشديد الذي لم تكن لتدري أتصفه باللذة ام بالالم ، ان اخا اندري المسكين واخته قد سبقاها الى القيام بتلك الزيارة الحنونة التي كانت تنويها . في ذاك الصباح المشعّ ، تذكر الولدان اللطيفان رفيق العابهما الغائب . فجمعا له ازهاراً من الجنينة القريبة ، كما جمعت له امه الازهار من الحديقة البعيدة ، وارادا ، في سذاجتهما الصبيانية المؤثرة ، ان يشركاه بالعيد الكبير ، فاشتريا له بعض البيض امام باب الكنيسة ، واسرعا ليهديا اليه هدية الفصح المجيد . سمعت الام صوت اليس :

يجب وضع الباقة هنا . هل تذكر تلك الحشرات الذهبية التي كنا نلتقطها له من بين الورود ؟ . . .

. فاجاب غي : وهنا يجب وضع البيض ، كما صنعنا السنة الفائتة . لقد كان مسروراً جداً اذ ذاك ! آه كم اود ان اراه واقبله !

فقالت الصغيرة : هذا مستحيل ! . . . على اننا سنجده في السماء !

فقال الغلام : آه ! لو كان يقوم من الموت ! لقد قام العازار ! وقام سيدنا يسوع المسيح ايضاً . . . . اني اسأل الله هذا كل مساء ، وكل صباح . واني متأكد ان امنا تسأله الشيء نفسه ايضاً . . . فاذا قام ، يكون الله قد صنع اعجوبة ليس غير . ولِمَ لا يصنع الله هذا من اجلنا ؟ . . . فانني اعتقد بوجود العجائب . . .

وبينا كان المؤمن الساذج ، ذو التسع السنوات ، يتفوه بهذه الكلمات ، لم يكن ليخال ان اعجوبةً حقيقية كانت تحدث قريباً منه ، لدى سماع صوته ، وقيامة جديدة ، هي قيامة العدالة والشفقة ، قيامة الحنو والواجب ، قيامة الفضائل السامية ، كانت تحدث في نفس تلك التي كادت تصبح اقسى « الخالات » له ولاخته . باغت الامَّ برهانٌ صباني بأن اليتيمين لا يزالان يذكران اخاهما الميت ، فتأثرت حتى اعماق كيانها . وما عتم غي واليس ان ابصرا الباب يفتح على مصراعيه ، فخافا ان يُلاما على عملهما ، ولكن سرعان ما تحوّل خوفهما الى طمانينة لطيفة ، اذ شاهدا الام — امهما — قد دخلت فبسطت لهما ازهارها قائلة : « خذا واعطياه هذه ايضاً مع زهوركما . . . » ثم اخذتهما معاً فضمتهما الى صدرها بولع ، بل بجنون ، كما لو كانت تضمّ الآخر . . . ألم تجدهما ، هما ايضاً ، بعد ان كانت قد فقدتهما ؟ ثم اجهشت في البكاء ذارفة دموع الالم ذاته ، ولكن بعد ان لطّفه الحنو ، كما لو كانت روح ملاكها الغائب همست في اذنها : « احبيهما كما تحبيني ! . . . » فذاب الحقد الفظيع ، والمقاصد السيئة ، والحسد القاسي ، وسائر سيئات الاهواء الخاطئة ، وانحلت طائرة بتلك القبلات . واذا بسرّ التجديد المظيم ، الذي تحتفل به الكنيسة ، والذي يظهر في مشهد الربيع ، يفعل مفعوله ، مرة اخرى ، في هذا القلب البشري : واذا بالحياة تطرد منه الموت ، واذا بالمحبة تنتصر فيه على البغض .